وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

بلاغ كاذب

قصص قصيرة



أمل أسعد لايقة

بلاغ كاذب

تصميم الغلاف

أمل أسعد لايقة

بلاغ كاذب

قصص قصيرة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

تنويه

هذه القصص كُتبت بين عام

٢٠٠٧ و ٢٠٠٩م

بلاغ كاذب: قصص قصيرة / أمل أسعد لايقة . - دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٠٤ ص؛
٢٠ سم.

(قصص قصيرة؛ ٣٤)

١ - ٨١٣,٠١ ل ا ي ب ٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ل ا ي
ب ٣ - العنوان ٤ - لايقة ٥ - السلسلة
مكتبة الأسد

قصص قصيرة

«٣٤»

الإهـداء

إلى كل وجه

لم يُضبط متلبساً

بقناع..

أمـل

محطة اسمها عيون

ثمـة عيـون تحبّهـا وعيـون تحبّـك، ثمّـة عيـون واضـحة وأخرى غامضة..

هنـاك الحالمـة.. الحاقـدة.. هنـاك الـضّاحكة.. الغاضـبة.. وثمّة عيون تنظر إليك لتأخذ منك شيئاً ما.. إنها تراقبـك.. ترصد حركاتك.. تحرّكاتك.. تترصد حتى نظراتك.

عيون تتجسس عليك لتسلبك حريتك، طريقة جلوسـك، تخترق خصوصيتك.

تـصبح إنـساناً مـتململاً.. خائفـاً.. خجـلاً. تظـنّ نفـسك علـى خطـأ، فأنـت تلفـت النظـر وتـثير الاهتمـام.. مـع أنـك لا تجد ما يستدعي الانتباه ولا تجد ما يُخجل.

تعتقد أنه عليك أن تغيّر مكانك.. أن تنتبه لملابسك.. تعدّل جلستك.. تخفّف من ضحكاتك.. من وتيرة صوتك.. تخفّف من إشارات يديك والتفاتة رأسك.. باختصار عليـك أن تقيّـد حرّيتك الشخصية لأن ثمّة عيون تحاصرك حتى في بيتك.

تحاول أن تتجاهل تلك العيون.. أن تكون طبيعياً.. تحاول أن تكون حرّاً لكن.. عبثاً لن تجد ضالتك.. تكبح غيظك.. تكتم أنفاسك.. تسيطر على أعصابك.. تتماسك وتبتسم قائلاً: "إرضاء الناس غاية لا تدرك".

تلك العيون تحاسبك فيما تتحدث.. تلومك وأنت غير مبالٍ.. إنها راغبة بإثارتك وتحويل هدوءك إلى نار متّقدة.. ترغب باستفزازك لتكون شاهدة على مشكلة ساهمتْ في توريطك بها.

تلك العيون قد تكون جارة لك.. جاراً.. نافذتهم مطلّة على دارك.. على شرفتك.. على عفويّتك.. على زوّارك.. على مساحة أحلامك.. تحاول أن تضع حداً لذلك.. تفكّر بنصب خيمة تداري من خلالها حياتك المستباحة أمام جيرانك.. تحجب عن نفسك الضوء والهواء.. تشعر بالاختناق لمجرّد التّفكير بالحل.. إذ أنّك لطالما حلمت بشرفة واسعة ذات فضاء. شرفة مطلّة على الحياة!

«إذا تعاظم حزنك أو فرحك..

صغُرت الدنيا في عينيك»

جبران خليل جبران

هذه المرة لن أتراجع، سأكون مسؤولة عن كل النتائج.

آن الأوان لأحدد طريقاً لا يسبب لي الموت البطيء.

بينما أمشي وصلت إلى حديقة مليئة بالعشاق، جلست على أقرب مقعد وحاولت تجاهل نواح هذه وقبلة ذاك وهمس هذا وانفعال تلك.. أريد أن أخلو بأفكاري.

حدّثت نفسي:

سيلومني الجميع، سأُتّهم أني لا أُحسن التعامل مع الحياة الزوجية، مهما شرحت لهم فأنا المخطئة وأنا المسؤولة فلا أحد تدخل بخياري ولم يعترض أحد على قناعتي بما أفعل.. أذكر يوم كنّا خطيبين كم ابتلعت من مشكلات وحساسيات كي لا يجرح أحد مشاعره أو يزعجه بكلمة، وكي لا أبدو ضعيفة أمام المواقف التي تعترضني. وكنت مؤمنة أن كل ما يحدث بيننا طبيعي كحال أي شريكين يتعرفان على بعضهما وهما موضع اختبار لمشاعرهما وأفكارهما.

قلت:

ستنمو أزمنة على حافة النسيان وفي مساحات القلق سأعيد روحاً تتوقف لاحتفال ينهمر على أصيافنا الحارة.

تلك الأفكار جاءتني في غسق ضبابي، لأنني تورطت في ابتلاع آلامي وما عدت قادرة على التراجع أو بثّ الشكوى.. يجب أن أتماسك وأتكيف.. قد يكون ما أفعله لصالحي في المستقبل.. إنه من اختاره قلبي وعقلي دون الناس جميعاً، وتابعت حياتي معه إلى أن تزوجنا، ويا لتلك الفجيعة.. لا شيء تغيّر.. يثير المشاكل لأقل موقف، يعترض لمجرّد الاعتراض، يرفض مناقشتي، وبعد قليل يعتذر متألماً من سوء تصرفه.. يمسح بأصابعه شعري ويحتمي بتسامحي وطيبة قلبي.. يقبلني والدموع على خدي.. يلتمس حناني الذي اعتاد عليه.. يحملني إلى السرير ويهمس بأذني:

- أحبك يا مجنونة

كنت أحاول تدجين ثورات غضبه، أبلسم مسيرة حياة مازالت تبلور ملامح تجربتها بلغة تتماهي مع شرط الاستمرار.

تأملاتي وصرخاتي الداخلية تستعصي عليّ أحياناً إلاّ أنني أتقمّص شخصية تنسجم وهذه التناقضات.

نهضت لألقي بقدمي خارج الحديقة المشبعة برائحة الحب، تعبرني شواطئ صاخبة ورمال موحلة، تعبرني

الأغنيات التي ردّدناها في هذا الشارع وذاك. تمضي بي الذاكرة إلى هناك.. حيث الأحلام وبراءة العواطف ودفء البوح.. حيث كل شيء يبدو ممكناً في لحظة اعتراف بالحب! ها أنا أتكلم كالبلهاء:

لن أعود أتحمّل زواجاً مهدّداً بالانهيار وزوجاً يهدد بالحصار النفسي كل صباح، يخاف عليّ، يضغط على أعصابي لأنه باختصار شديد.. يحبني.

وجدت نفسي أمام منزل والديّ، منزل طفولتي..

هل أدخل وأشكو لهما همّي؟ ماذا ستقول والدتي؟

"هذا اختيارك، أنت المسؤولة. هو الرجل وله حق عليك، لا تعانديه ولا تتحديه. اصبري عليه"

اللاّءات ستنهال على رأسي كالسّياط.. أما والدي، سوف يصمت ويهز رأسه متأسفاً ثم يقول:

"القرار بيدك يا ابنتي".

آهٍ يا والدي لو أعرف قراري.

ها هي أمي وكأني أسمع صوتها في أذني:

"عودي يا ابنتي إلى زوجك، المرأة الصالحة تتغاضى عن هفوات زوجها، إنها لا تخرب بيتها بل تحافظ عليه".

سأقول لها:

"هذا كلام يصلح لزمانكم يا أمي أما زماننا فيحتاج إلى موقف".

لن أدخل وأعرّض هذا الصّدع الذي في داخلي إلى شرخ.

أمشي وأمشي علّ الهواء يساعدني على التفكير الإيجابي، لم أعد أريده، لا أطيق الحياة معه، لقد مللت اعتذاراته كلما بدأ معي سلسلة تحذيراته اليومية مع فنجان القهوة وقبل خروجي إلى الجامعة:

"لا تتكلمي مع فلانة.. صديقتك تلك لا أريدها في بيتي.. لا تتأخري.. خففي واجباتك الاجتماعية.. خففي ساعات محاضراتك".

يحاسبني على أقل خطأ غير مقصود.. لم يعد يعجبه الطعام الذي أعدّه له، ينفر من ترتيب البيت.. يثير الفوضى حوله.. يغضب من فتح الستائر.. يتأفف إن رفعت سماعة الهاتف..

هل يغار مني أم يغار عليّ! لم أعد أفهمه، شيء ما يتداعى بيننا..

ترى ماذا تخبّئ هذه المنازل التي أمرّ أمامها.. ما وراء هذه الجدران والنوافذ المغلقة!

هل فيها مشكلة تشبه مشكلتي؟ زوج يشبه زوجي وامرأة حائرة تشبهني؟

هل هناك قاعدة عامة للزواج؟ هل الحب أن يسيطر عليك الآخر وأنت راضٍ؟ هل الحب حقاً هو.. ألا تعيش مع إنسان تحبه تحت سقف واحد طوال الوقت؟

ربما.. الحمد لله ليس بيننا أطفال، إذاً لما فكّرت بمجرد الخروج من البيت.. هل ستكون حياتي أكثر رحمة.. أكثر كرامة إن تم الطلاق بيننا؟

ما سيحصل معي كمطلقة أصعب بكثير مما أنا عليه، على الأقل.. القمع الآن بيني وبينه أما بعد ذلك فسيكون بيني وبين مجتمع بأكمله لم يخرج بعد من ذكوريته.

أين سأجد الإنصاف؟ مع أهلي وعيونهم الخائفة:

"لا تتأخري.. الجيران لا يرحمون الأقرباء يشمتون الأصدقاء يتلاسنون خفية.. الحديث عنك سيكون مع كل فنجان قهوة صباحي للنسوة".

وليكن، لن أتراجع ولن أعود بعدما وصل به الأمر حدّ الضرب والشتم.. هل يعقل من رجل متعلم وناضج أن يمد يده على زوجته لأنها قالت له:

"لا أسمح لك بقمعي.. وصبري على تصرفاتك ليس خوفاً منك بل احتراماً لما بيننا وإن كنت لا تأبه لذلك فعليك أن تنتبه له في المرة القادمة، لقد (بلغ السيل الزبى)".

لقد ضربني أكثر من مرّة.. شعرت أنا المرأة المقبلة على نيل الدكتوراه والتي يقدرها الجميع إلا زوجها.. شعرت أني مثل دودة تحت قدمي وحش.. لا.. لن أعود..

في الليل يستلقي بجانبي ويداعبني قائلاً:

- أنت لي.. لا أستطيع أن أتخيل زوجتي خارج ذاتي ومملكتي.. اغفري لي.. أحبك وإن تركت متابعة الدكتوراه سأكون رجلاً آخر يحسدك العالم عليه. وإلاّ قد أتزوج عليك..

يقول مازحاً وهو يرتمي فوقي.

يصعقني كلما حدّثني بهذه اللغة الرجعية. يخاف من نجاحي وتفوقي.. لا يريد أن أساويه وأكون نداً له.. لم يكن كذلك.. إذاً كان يسايرني عندما كان يشجعني على متابعتي، كان يدّعي الفرح كي لا أغيّر نظرتي بأفكاره، وها هو يصغر في عيني..

لا.. أيتها الشمس لا تذهبي قبل أن تساعديني.. يا إلهي.. أنا أحبه أيضاً لكنه ما عاد يطاق.. أنانيته تجرحني وتخيفني.

أوقفت تاكسي ورميت بجسدي المنهك على المقعد.

سألني السائق:

- إلى أين؟

لو يدري هذا السائق كم من الوقت مرّ وأنا أفكّر في جهتي!

أجبته بعد أن استدركت أنه ينتظر أن يعرف.

صعدت الدرج بتردد وأسى.

فتحت الباب.. شممت رائحة بيتي، اشتقت إليه.. هدوء مربك.. بحثت عنه لربما كان نائماً، لم أجده.. وجدتُ ورقة مفتوحة على آخر ما توقعته كتب عليها:

"ورقة الطلاق ستصلك غداً.. لقد خرجت عن طاعتي.. مبروك عليك الدكتوراه..".

شعرت بالدوار والغثيان وكان ثمّة صوت يملأ الغرفة ويملأ رأسي وأنا شبه غائبة:

"ليتك لم تخرجي.. ليتك لم تخرجي".

"ما الفائدة إذا كنت مُخلصاً

والآخر فوقك يخونك"

محمد الماغوط

موقف مؤقت

تك، تك، تك

يتقلّب في فراشه، يرفع الغطاء ثم يزيحه، يضع الوسادة على أذنيه، لم يعد يطيق صوت الساعة.. يجلس في منتصف السرير تواجهه المرآة..

يواجه نفسه.. يقطّب حاجبيه ثم يبتسم.. يغلق عينيه ثم يفتحهما.. الساعة تدق..

ينهض.. يمد يده ليمسك بالساعة وينزع البطارية منها. سيلغي الوقت من حياته.. ماذا يعني له؟ لن يغيّر شيئاً من سلوكه أو علاقاته.. ليس مسؤولاً عن أحد.. ليس بحاجة لانتظار أحد ما.

وضع البطارية في درج قريب.. هكذا لن تدق.. تك.. تك.. تك.. سينام عندما يحلّ الظلام.. سيستيقظ عندما تدخل الشمس نافذته.. سيأكل عندما يجوع..

لا يريد أن يعرف كم ساعة مضت على قراءاته لكتاب، أو كم من الوقت مضى على مشاهدته التلفاز، أو مزاولته الرياضة، أو دخوله الحمام!

بدأ يومه بناءً على رغبته تلك، نزع الساعة من معصمه وأودعها الخزانة.

بالأمس ترك وظيفته بعد مشادّة كلامية مع المدير لأن الأخير قال له:

"خفف من ضغطك على فلان.. لن يتركك فلان إن بقيت على تأنيبك لتأخّره وتسيّبه.. ألا ترى أنا المدير وأغض النظر".

بالأمس اختلف مع حبيبته لأنها تتأخر عن موعدها معه وتؤكد له قائلة:

"على الرجل أن يأتي مبكراً.. عليه أن ينتظر حتى يشعر بقيمة ما ينتظره، وتقول: حبيبي كفّ عن إجهاد نفسك..".

أعجبته فكرة إلغاء الوقت فيما كان يمشي في شوارع مدينته، هو الآن غير ملتزم بشيء أو مع أحد.. عاطل عن الوقت.. فليكن ليجرّب..

رغب بزيارة صديقه الذي لم يكن يزوره يوماً دون موعد مسبق.. لم ترق لصديقه هذه الزيارة المفاجئة وصرّح قائلاً:

- ليس من عادتك المجيء في هذا الوقت.

- لقد تركتُ العمل.

قال له:

- صديقي سأعتذر منك.. بعد قليل ستأتي صديقتي وقد يحرجها وجودك.

ودّعه وقد حاول ألاّ يبدو منزعجاً أو مزعجاً.. رمى نفسه في الشارع بلا وجهة محددة حتى وصل حديقة عامة أراد أن يختلي فيها متحرراً من كل شيء.. لكن الحارس كان يهمّ ليغلق الحديقة عندما بادره:

- أيمكنني الدخول؟

أجابه الحارس باستغراب وهو ينظر إلى ساعته:

- الوقت تأخر يا أستاذ.. آسف.

ضحك وعاد أدراجه هامساً في سره:

"لم أعرف أن للوقت قيمة وله حدود ونظام عندنا.. تباً.. لماذا يلومونني لحرصي على التقيّد بمواعيدي؟".

رأى من بعيد ضوءاً لأحد المطاعم، سارع الخطى فوجده مناسباً لالتهام وجبة مميزة فيه.. وعندما جلس على إحدى

الطاولات وقبل أن يطلب شيئاً، اقترب منه شاب ضخم الجسد، مفتول العضلات، حليق الرأس وهمس له:

- بعد إذنك تفضل بالخروج.

نظر إليه متسائلاً عن السبب مع أن المطعم مفتوح ولا شيء ينبئ أن الوقت تأخر.

وضّح الشاب بحزم:

- هذا الوقت ليس لأمثالك، إن المطعم محجوز فاذهب بسلام قبل أن نخرجك بطريقتنا!

خرج بسلام.

لم يستطع أن يكون حراً كما كان يرغب، ولم يفعل شيئاً يوافق الآخر.

بينما هو يسير وقد أتعبه المسير والليل أرخى سدوله على محاولاته الفاشلة في اختراق نظامه، وصل البناية التي يسكن إحدى شققها فإذ بباب جاره يُفتح ويبادره الجار بسؤال:

- خير يا جار، ليس من عادتك أن تسهر لهذا الوقت المتأخر من الليل!

أجابه بسؤال:

- هل حقاً تأخر الوقت؟ وماذا في ذلك.. من ينتظرني! مَن انشغل عليّ.. مَن شعر بغيابي.. مَن استفقد بابي المغلق!!؟

لم يعرف جاره بما سيجيب فأغلق بابه معتذراً لتدخّله.

أما هو فقد دخل برأسٍ ثقيل وفارغ بنفس الوقت. المعدة خاوية.

سارع إلى المطبخ والتهم بشراهة الطعام الموجود في البرّاد، وسكب في جوفه عبوة لبنٍ رائب وبارد، إلا أن رأسه بقي ثقيلاً وفارغاً.

"المدير لن يستغني عنه بالتأكيد وسيدرك أهميته ونشاطه، غداً عندما يذهب سيوافق المدير على وجهة نظره ومدى حرصه على الأمن العام".

وصل سريره الذي تركه على حاله منذ خروجه المجهول التوقيت. تقلّب في فراشه، رفع الغطاء وأزاحه، لم يستطع النوم رغم تعبه وشعوره بالخواء..

"حبيبته ستدرك قيمته وستفهم معنى احتجاجه وغضبه من لا مبالاتها تجاه المواعيد".

جلس في منتصف السرير، المرآة تعكس صورته وحيرته.. إنه رجل يحترم الوقت. يا لهذه الصفة الحمقاء..!

تأمل الغرفة.. السقف.. اللوحات تأمل الساعة الواقفة.. العقارب الساكنة.. الأرقام التي فقدت مبرر وجودها..

نهض ومشى في الغرفة جيئة وذهاباً. سيذهب غداً للعمل فهو لا يستطيع تنفس الحياة دون عمل ونتيجة.. دون حبيبة.. دون مسؤولية..

لا.. لا.. هذا ليس عدلاً.. سيخفف من إجهاد نفسه..

استلقى على سريره.. لم يدرِ متى أغفى.. كم ساعة نام.. كم يوم؟!!

استيقظ في غفلة من الزمن وقبل أن يفعل أي شيء مدّ يده ليمسك بالساعة ويضع البطارية فيها لتعود الحياة إليها.. تك.. تك.. تك.

"من وجهة نظر الطبيعة ليس هناك
فرق بين موت إنسان وموت قطة"

أرنست همنغواي

الجوع قاتل

حكايتي بدأت من هنا..

اضطررت بحكم الخوف أن ألتجئ إلى هذا المكان. رغم ضيقه وعتمته وجدته أكثر أماناً مما حولي، لكن المفارقة العجيبة أنّ هناك مَنْ هو أشدّ خوفاً مني.

تساءلت وأنا أستغرب هذه المفارقة: "هل أنا مخيف إلى هذه الدرجة؟ مؤذ وعدو لكل هؤلاء؟ منذ ساعات لم أُحرّك ساكناً. لم أدر كيف دخلتُ إلى هنا وكيف قادتني قدماي! المهم دخلتُ خطأ".

فيما أنا منشغل بخوفي، سمعتُ امرأة تقول لأحدهم يبدو أنه زوجها:

- إن لم تمسكه سأخرج من البيت حالاً، لا يمكنني البقاء وهذا القذر هنا.

إذاً أنا قذر. المرأة خائفة رغم أني لم أفعل شيئاً لها سوى أني دخلتُ منزلها دون إرادة أو تخطيط الزوج يبحث عني

وراء الباب، تحت الطاولة، بين الكتب، في الحمام، بين هذا وذاك.. ثم يصرخ:

- أين سيكون؟ ربما تهيأ لكِ أنكِ رأيتِ شيئاً يدخل، أنت دائماً تهجسين وتخافين.

تحمل المرأة طفلها وهو يبكي وتخرج.. لابد أنها تستعين بالجيران.. إني أرتعد خوفاً، خطى قادمة وتمتمات لا أفهمها تومئ لحدث غير مريح، أشعر بالاختناق، كيف يمكنني الخروج دون أية خسارات؟ ليتني بقيتُ حيث أنا، ما الذي جعلني أغير طريقي؟ ربما الجوع أو ربما الطقس السيئ.

الجميع يخافني وأنا أخاف الجميع، المكان ضيّق والرجل يتوعّد:

- سأجدكَ أيها اللعين.

يدخل الجار، ثم صديقه الذي جاء مصادفة. خطى تدخل وتخرج. يقول الجار لصاحب البيت:

- اسمع لقد وجدتُ حلاً.

أي حل وجده! ولماذا هو سعيد كأنه اكتشف نظرية؟

الصديق يقترح والرجل يفكّر..

لـو أنهـم يفـسـحون لي المجـال للخـروج لكـانوا وفّـروا علـيّ وعلى أنفسهم كل هذا العناء.

كم أنا جائع وخائر القوى! الجار يتكلم بهمس غير واضـح، يشرح شيء ما.

الزوجة تنادي زوجها من فوق سطح الجيران قائلة:

- مـاذا حـصل! هـل أمـسكتموه؟ ثلاثـة ضـد واحـد ولا نتيجة!

إنها تسخر لأنهم لم يجدوني مع أنها كما يبدو غير قادرة على سحق نملة.

ليس ذنبهم على كلّ فأنا مختبئ بشكل جيد.. مع أنني أتمنى أن أكيدها فأخرج لهم أعزلاً مستسلماً، ولكن.. لا.. هل أسلّم نفسي للموت بهذه البساطة؟

إني أتضوّر جوعاً وبرداً... ساعات وساعات.. وحدي هنا بلا سلاح سوى هذه الزاوية التي تحميني، وأي حركة منّي سينكشف مكاني ويحددوا الهدف.

فجأة! لم أعد أسمع أي صوت.. صمت مخيف وغريب.. هل ذهب الجميع؟ أم لعلّها خطة! نظرتُ بحذر شديد شمالاً وجنوباً.. الأبواب مغلقة والنوافذ أيضاً.. لا أحد موجود..

أتقـدّم وأتراجـع.. أنكمـش وأسـترخي.. يبـدو أن جـواً آمنـاً ينتظرني إن خرجت..

ياه.. ما هـذا! وجبـة مفعمـة بالـرائحـة الـشهية كانـت على مقربـة مـني.. أهـي لي! أتـسلل وآخـذها؟ لـن أفعـل شـيئاً، لـن أؤذي أحداً.. أنا جائع وهذا كل ما في الأمر.. ربما هـم أنـاس طيبـون، وضـعوا لي الوجبـة رأفـة بـي وتركـوني وحـدي كـي لا أخاف.

حسناً الجـوع يُنـسي الخـوف ويلغـي الأفكـار.. الكـلام الآن للطعـام.. لم أعـد أطيـق صـبراً، سـأقترب.. يـا للرائحـة.. يـا للطعام.. تباً للجوع.. سأقترب وألتهم هذا الطعام الشهي.

"أقرب الأغوار قعراً

أصعبها ردماً"

زارادتشت

من ملفات الحياة

ما خيارنا في هذه الحياة ما حرّيتنا ونحن نتخبّط في تفاصيل بسيطة وهموم صغيرة؟

ما جدوى أن نصل إلى المعرفة ولا نحوّلها إلى معايشة وسلوك؟

أسئلة دارت في رأسي، في غرفتي. أرّقتني وأخافتني. مرّ وقت وأنا على هذه الحالة.. إنه ضغط مجاني على أعصابي. صدامات يومية مع الذات، تفتح مجالاً للغوص في تركيبات بشرية مازالت تحتمي بقمقمها وكأنه خلاصها الوحيد.

عندما دخلت أمي الصالون وهي في حالة من الإرباك والخيبة سألتُها عمّا بها. وقفتْ مواجهتي قائلة:

- كيف تضعيني في هذا الموقف السخيف يا هديل؟ أما كنت تعرفين ما سيحدث؟

بهدوءٍ أجبتُها:

- أي موقف وأي حدث؟ كل ما أعرفه أن وسيم يرغب في مقابلتك خارجاً.

ردّت أمي غاضبة:

- لقد طلبكِ للزواج. ألم يخجل. ألم يدرك حقاً ما قاله؟

لم أستطع إظهار سعادتي بهذا الخبر وأنا أرى الرفض والاستنكار في وجهها. حاولت إخفاء رعشة يدي وخفقات قلبي، حاولت استعادة ما قالته لأتأكد من حقيقة ما سمعت.

- طلبني للزواج! لكنه لم يقل لي شيئاً عن الموضوع.

نظرتْ في عينيّ وقالت:

- لا تخدعيني. تعرفين كل شيء. ولكن هذا ما لن يحصل أبداً. استقبلتُه صديقاً وأخاً لكِ، تخرجين معه، تتحادثان وتتبادلان الكتب مع بعضكما. نعرفه منذ سنوات، يدخل كواحد من البيت، كيف يجرؤ على طلبك وأنت في هذه الحالة؟

ابتسمتُ ابتسامة ساخرة وأجبتها:

- هل تتوقعين أنه لا يرى حالتي، أم أنّه أعمى. إنه يحبني يا أمي فما المشكلة؟ أيستدعي هذا الطلب منك كل هذا

الغضب؟ لم أتوقع أن تكون ردّة فعلك هكذا مهما كان الموضوع قاسياً. وبالمناسبة أنا لست أول إنسانة تُطلب وتُرغب وتُحب وهي معاقة، معظم صديقاتي متزوجات ويمارسن حياتهن بشكل طبيعي ويعتمدن على أنفسهن. عليك أن تفرحي لثقة وسيم بإمكانياتي وقدرتي على مشاركته حياة زوجية.

لم تتقبّل أمّي كلامي. نهرتني بصوتها العالي قائلة:

- اصمتي. لن أسمع شيئاً ولا أريده في بيتي منذ اللحظة. انسي كل شيء. أتريدين أن يسخر منّا الناس؟ أنت لست مؤهلة للزواج، هل تظنينه سيبقى معك، ربما هو أعمى حقاً عن أن الكلام شيء والفعل شيء آخر تماماً. وإن كان متحمساً الآن فعلينا أن نوقفه كيلا يحرجنا أكثر.

لم أتمالك نفسي وقلت لأمي:

- كفى يا أمي أرجوك، إنك تهينيني بكلامك هذا. أيعقل أن تفكري بهذه الطريقة؟ هل ترفضين أن أحب وأن يكون هناك شخص في حياتي ويريدني ويجدني أهلاً له. إنه لا يجد ما ينقصني بل ما لديَّ، إنه لا يفكر بي كمعاقة بل كإنسانة. أما أنت فلا ترين فيَّ إلا العجز مع أنك تعرفين تماماً أن لا شيء يعيقني وقادرة على ممارسة حياتي بشكل

طبيعي. أمي أرجوك، اهدئي لنتفاهم. كيف كنت بالأمس منشغلة مع صديقتي وأهلها كي تتم خطبتها على من تحب وتحاولين جاهدة إقناعهم؟ لِمَ لا تفعلين معي الشيء ذاته؟

أجابتني:

- لأنك لست مثلها.

تركتها ودخلت غرفتي.

ماذا أفعل؟ ليس لي الحق في أن أكون إنسانة طبيعية. إنهم يصرّون على أنني لست كأي شابة تحب وتحلم بفستان زفاف وبيت مستقل وحياة مطمئنة. يصرّون على حاجتي لهم، وعلى أنني ملكهم ومن المعيب أن أفكر بغير ذلك. أجل من المعيب والمخجل. لن أكون قادرة على تحدي والدتي. حتى أنني لا أقوى على احتمال غضبها وموقفها تجاهي، ما تعودت العيش معها لحظة فيها غربة. رغم ما أشعره الآن من بُعد واغتراب عنها، وهل أستطيع الاختيار بينها وبينه؟ ما أصعب خيار كهذا!

يا إلهي قد أخسره نهائياً. لن تستقبله بعد اليوم كصديق وترفضه كحبيب. هل أنتظر أن تهدأ؟ ما انتظاري إلا وهم جديد أضيفه لأوهامي التي كنت أعتبرها حقوقي حتى هذه

اللحظة التي انقشعت فيها غيوم الأحلام لتحلّ محلها هموم الواقع الذي يوجه أصابعَ اتهامه لمن يحاول أن يتفوق عليه.

رنّ التلفون، مسحتُ دموعاً على خدّي وتنفستُ بعمق.. مددتُ يدي لألتقط السماعة. كان هو.

أدرك من صوتي أن ما حدث معه تكرّر معي، أردتُ أن أعتذر وأقول ما عندي وما أشعر به. غلّف الصمت قهري وخيبتي، بضع كلمات متقطّعة خرجت من بين شفاهي فهمَ كل ما وراءها. لكنه قال:

-إني مدرك تماماً ما تُحسّه والدتك وما تحسّينه. لستُ نادماً على خطوتي، ولن أهزم من أول موقف. ألم تقولي لي "يكفينا شرف المحاولة على الأقل! سأتركك لتستعيدي قوّتك، ربما والدتك بحاجة لك الآن، وأعدك بالمحاولة مرة أخرى.

أمسكتُ عكّازي ووقفت قرب الباب، كانت أمي تجهش بالبكاء. شيء ما مسّها وآلمها قد يصعب شرحه أو بوحه. اقتربتُ منها وقلت:

-لا شيء على الإطلاق يستحق دموعك، احتفظي بها يا أمي. لا شيء ولا أي إنسان يمكن أن يكون خياراً بينكِ وبينه.

تعانقنا وبكينا. وكان بيننا وجهٌ يغادر.

"لا يحلم أحد بغير الحب
ولو حلم بغيره"

أنسي الحاج

موقف حب

ماذا تفعلين؟ ماذا تظنين نفسك؟ أنت لست جداراً ولا صخراً.

لماذا تكابرين؟ أنت امرأة هل تفهمين معنى أن تكوني امرأة؟ آه يا عزيزتي هذا يعني الكثير.

إنك أنثى، جسد وروح، ومشاعر وأحاسيس.

هل تعتقدين أن هذا الزمن سيصفّق لك وأنت تعلنين مبادئك؟

آه لو تدركين أين يضعون المبادئ هذه الأيام.

لن تكلّميه! إذاً تنتظرين مبادرته لثقتك بحبه لك ولثقته بأنه يعرف خطأه.. اسمعي يا عزيزتي.. لا أظنه يعترف بخطئه.. فكما للمرأة كبرياؤها أيضاً للرجل غروره.

فكّري جيداً... هذا الزمن لا ينتظر طويلاً..

تقولين سيعود، سيتكلم، لا يمكن للحب أن ينسى في شهر، لا يمكن أن تكون العلاقات قد تشوّهت لهذه الدرجة.

آه.. ما بك؟ إنك تثيرين شفقتي، اعذريني إن كنت أمسّ كبرياءك أو أجرح مشاعرك، أنت لا تريدين رؤية الحقيقة خوفاً من الحقيقة ذاتها، لا تريدين مواجهة بشاعة ما يحدث حولك لأن براءتك أكثر رفعة من كل شيء. ولكن، ثمة ما يغيب وقد لا نستطيع اللحاق به.

لا تصدقيني! هذا واضح، لم لا تكلّميه وتوفري على نفسك هذا العذاب. لن تكلّميه؟ مما أنت معجونة كيف تتحملين الشوق والرغبات؟ كيف تمارسين حياتك اليومية، كيف تبتسمين لزملائك؟ كيف تظهرين بكامل أناقتك ولباقتك وفي داخلك كل هذه الشجون؟

تقولين: "ما ذنب الآخرين؟".

ليتني أعرف من أين تستمدين حكمتك وتعقلك هذا. هل قصة حبك وطقوسها الدافئة هي السبب فيما وصلت إليه من هدوء أعصاب وإيمان بالآخر؟

لطالما حُسدت على ما أنت فيه مع حبيبك، كنت تحلّقين، تسرقين من الحياة كل لحظة عذبة. والآن كيف تخمدين نيران عواطفك وتقسين على روحك ولا تكلّميه؟

من أين لك كل هذه الثقة بالنفس، من أين لك كل هذا الكبرياء؟ هل فقط لأنك تعرفين أن الحق معك، وأنك منصفة بموقفك..؟

ماذا ستفعلين لو ضرب بكل ثقتك وعنفوانك عرض الحائط وأدار ظهره لكِ؟

لن يفعل. آه منك، أنت تحكمين على نفسك برهان خاسر.

انتظري، إلى أين أنت ذاهبة، هل أزعجتك؟ أرجوك لا تغادري. سأقول لك شيئاً قبل أن تذهبي، لقد أخبرني:

"ستتكلم هي بعد هذا الغياب لتثبت لي أنها احترمت كبرياءها وأرضت غروري. وفي ذات الوقت ستبدو أمامي كبيرة جداً".

والآن، اذهبي. ما عاد عندي شيء لأقوله.

نهضتْ عن كرسيها الذي يتوسط غرفتها المطلّة على نافذة أحلامها وهواجسها، ثم ألقت نظرة على الشارع، وإذ بعينيها تأتلقان. لقد لمحته قادماً إليها من تلك الزاوية التي لطالما جمّدت انتظارها وأعادته خائباً لوّحت بيديها لتعلن أن للقوة ضعفها المشروع في لحظة حب يشرّع كل شيء لمن يحب حقاً.

"الإنسان الحقيقي

يحتاج إلى القليل من الأشياء"

زوربا

براءة..

"الأطفال الصغار يحلمون أحلاماً كبيرة"

مقولة سجلتها يوماً لكاتب أدهشني إنه (رسول حمزاتوف) ولم أدرِ يومها أنها ستلازمني في زمن مجهول الهوية، مبهم التفاصيل حيث أبدو كمن يستعرض شريطاً سينمائياً أو مشهداً مسرحياً ليخفف من ثقل الخذلان.

في زمن اليتم ومفاجآت الاستفزاز وبينما تدور في مستنقع الواقع وعلى كتفك ترفرف أجنحة الحلم.. تتراءى أمامك أضواء وموسيقا خافتة وحركة طفولية لا إرادية ونبض يجتاحك منذ ما يقارب آلاف الحكايات المخبّأة في تلافيف دماغك.

كنت آن ذاك صغيراً وفقيراً.. وحيداً ويتيماً أمشي في شوارع مدينتي بالمدة المسموحة لي وبعد نقاش طويل مع مديرة الإقامة الموجودة فيها حيث أنني أمانة لديها ويجب التقيد بالشروط والتعليمات.

يومها تلفتّ ليستوقفني حلم بحجم جراحي، وفي لحظة مسروقة من عمر الزمن جالت عيناي في ذلك البنطال المعلق على مشجب الاغتيالات اليومية للرغبات. بنطال جميل استفز طفولتي المستباحة.. استفز جيوبي الفارغة والرطبة حيث لا يربطني بها إلا الفراغ والظلمة.

كان جميلاً بلونه الأزرق والأضواء حوله تزيده بهاء، وأنا المتأمل الواهم ألعب بأفكاري ما بين التمني والتردد.. ماذا أفعل وقد بلغني الطموح في الحصول عليه حداً يتجاوز طفولتي؟

اقتربتُ وابتعدتُ، تلفتُ وارتبكتُ، عليّ استجماع حرماني بانتفاضة صلبة وأمدّ يدي هارباً بهذا البنطال الحلم. نعم ولن أكون نادماً على فعلتي.

"طفل يكبر شيئاً فشيئاً أمام إلحاح وإيقاع ينبثق من أقاصي البراءة، صادق مع نفسه بحيث يستطيع تصديق سرقته المشروعة دون اعتبار لقانون أو لأي شيء آخر".

يومها وثبتُ بخفة لا معقولة مشبعة بالجرأة والتمرد.. أصبح البنطال من حقي.. ركضتُ لا مبالياً بالنتائج.

يا الله! يا لسعادتي التي اقتنصتها من أعماق القهر والحاجة.. تلك السعادة المنقوصة دائماً لكنها قد تشعّ في لحظة لا تتكرر وقد تخلّد.

في وهج انتصاري واستغراقي بفلسفة ما فعلت ورصد الصورة بأبعادها عدتُ لحيرة ما بعدها حيرة.

أنا الطفل الشقي اليتيم العائد إلى ميتمه ببنطال كبير وجديد.. ماذا أفعل به؟ من أين لي هذا؟ ما الجواب الذي سأبرر فيه وجود بنطال غال ومميز وأنا لا أملك ثمن قطعة حلوى؟

برهة توترتْ فيها أعصابي وأنفاسي، وفي صخب غربتي وحيرتي دخلت الميتم متوجساً.. خائفاً.. باحثاً عن مكان سرّي لبنطال غير شرعي بنظر من سيراه.. برد كزّز أسناني فاعترتني حمى محاكمة افتراضية.

آه يا إلهي.. ألا يحقّ لي أن أحقق حلماً راودني وسط نيراني ومحنتي واستحالة! أحلامي الكثيرة؟!!

نزعت من عقلي شيطان المحاكمة وبدأت أبحث عن مكان يليق ببنطالي الذي سأرتديه يوماً وأتباهى به أمام أصدقائي. مكان يحميه من التلف.

ضمّدتُ أحزاني بحلول تلملم شتاتي، فحيناً أجدني أمسكه لأضعه تحت السرير وأتراجع لأنه معرّض لكشف أمره في أية لحظة تأتي فيه المستخدمات لتنظيف الأرض وما تحت الأثاث.

فكّرتُ.. هل أضعه في الخزانة؟ لا.. فهي الأخرى تُرتَّب بين الحين والآخر وربما يسرق في غفلة عني. أريد مكاناً لا يلفت انتباه أحد.

تحت الفراش؟ لا.. في حقيبتي؟ لا.. لا.. كلها أمكنة تستباح في أي وقت دون مراعاة لأية خصوصية. المشرفة تفتّش باستمرار عن أشياء لا ندريها ولم نفهمها حتى الآن..

يا إلهي.. لم أتوقع أن أتعرّض لهذه المشكلة، أين أخبئه.. أين.. أين؟

بدأت فرحتي تأخذ شكلاً مختلفاً.. قلق وصراع في رأسي، كل ما أدركه أنني ضعت في فضاء حلمي وتنازعتني الأحاسيس فما عدت أمسك مفتاح القضية.

نظرت في جميع الاتجاهات، في اتساع وضيق المكان عليّ. غصّة نبضت في حلقي وشعرت بالإهانة لعجزي أمام بنطال يحتاج الحماية والأمان اللذان أفتقدهما.

مشيت تائها ومتألما حتى أوشكت على اليأس، لكنني لن أُخذل ولن أجعل أحداً يحاسبني على مطلب بريء كهذا، وفي زحمة التساؤلات انتبهتُ لحل ليس أمامي سواه، حلّ لا يمكن رفضه مع أنه الحل الأسوأ.

لا.. لن أرميه هناك، بضع خطوات وأصل، حلمي الكبير يخنقني.

آه من خيبتي، اقتربت وأنا أحتضنه كثروة عثرتُ عليها للتو أو ميراث أحفظه من عيون الطامعين. اقتربت متسائلاً:

- هل سأرتديه؟ هل سيأتي يوم وأراه كما هو ينتظرني؟

وصلت، ثم وضعته بكل حنان في قاع حاوية موجودة قرب مدخل البناية، هنا أزيح عن نفسي الأسئلة التي سيحاصرني بها كل من يلمحه بين ذراعي بالإضافة إلى صفة (السارق) التي ستكون بديلاً عن اسمي وستمحو كل أخلاقياتي.

نظرتُ إلى ملابسي الهزيلة والحزينة، نفضتُ عنها براءتي وهزيمتي وفشلي أمام استبدالها وعدّتُ مسربلاً بحلمي الجميل العذب وبوعدٍ مني أن أخرج يوماً لأجده منتظراً لهفة طفلٍ على حافة حاوية.

"دع الناس مطمئنين لا تفتح أعينهم

إذا فتحت أعينهم فما الذي سيرون؟ بؤسهم!

دعهم إذاً إلا إذا كان لديك

عندما يفتحون أعينهم، عالم أفضل!"

زوربا

صورة

كم من نماذج غريبة تصادفها في الشارع، على الأرصفة، هنا وهناك نجد أطفالاً بعمر الزهور يتاجرون بطفولتهم وأحلامهم. علب العلكة والبسكويت.. علب السجائر.. المناديل الورقية.. في حضنهم وكأنها جزء من شخصيتهم.

تقصد البحر راغباً بسكينة تصفو بها روحك فيصيبك الاضطراب من زحمة الأجساد الغضّة المنتشرة حولك.

صراخ الباعة يعلو، يتبارون في اقتناص هذا الشاري أو ذاك.

أصاب بالحيرة وأنا أعبر الرصيف.. ماذا أختار البوشار أم الفول الساخن؟ هل أشتري غزل البنات أم باقة ورد صغيرة ذابلة من كثرة التلويح والاستجداء؟

أتجاهل كل شيء، وأبحث عن طاولة منفردة لأنفرد بما جئت لأجله.

أحاول الانعتاق من الضجيج المؤذي. يقترب شاب في مقتبل العمر يسألني عما أريد، أجيب:

- فنجان قهوة.

وأدير وجهي للبحر ليعدّل مزاجي.

بينما أنا جالس، هرع إليّ طفل دون العاشرة وفي يده علبة كرتون مليئة بالبسكويت، يبتسم ابتسامة بلهاء وهو يقول:

- ثلاثة بعشرة.

أبعدته بصمت.. أصرّ قائلاً:

- طيب عمّو.. أربعة بعشرة.. اللّه يخليك.. جرّبها.. واللّه ما بتخسر.. كرمال اللي ناطرها.

قلت لنفسي:

"طفل خبيث".. ثم تساءلت.. من دجّنه ودجّن سلوكه وطريقة كلامه وتحايله ليكسب بعض المال؟ ماذا أنتظر من هذا الطفل؟ رجلاً مستقيماً ومكافحاً! أم مشرداً، عابثاً وناقماً! يا ترى أين هم والدا هذا الطفل؟ تُراهم السبب فيما هو عليه؟ أين يخبّئ طفولته؟ وكيف يحوّل براءته إلى عمل يقتات منه بكل خشونة؟

مازال الطفل منتظراً أن أغيّر قراري وأشتري البسكويت الرخيص.. رشفت قليلاً من القهوة ثم ناولته مبلغاً وقلت له:

- خذ هـذا المبلـغ ولا أريـد شـيئاً شـرط ألاّ تعـود إليّ مـرة أخرى.

وإذ به يصرخ في وجهي لأرى ملامح خالية من أية لطافة قائلاً:

- شو شايفني عم أشحذ!

وأدار ظهره باستعلاء ولؤم. شعرت أن جرحته وآلمته، كان علـي أن أتـصرّف بلباقـة معـه، ولابـد أنـه تحـسّس كـثيراً مـن طريقتي معه.

التفـتُ حيـث اتجـه لأناديـه وأعتـذر منـه عـن خطـأ لم أقـصده، رأيتـه جالـساً علـى أحـد المقاعـد يتنـاول الفـول الساخن بكل رضى وتلذّذ.

انتظـرتُ حتـى ينتـهي، مـسح بكُـم قميـصه فمـه الـصغير، ومدّ يده إلى جيوبه ليخرج النقود ويعدّها.. إنها حصيلة يوم مرهـق وممـل كمـا يبـدو. ولكـن لا، يبـدو أنـه سـعيد بـالرقم الذي توصّل إلى جمعه، إنه رقم سوف ينقذه ربما مـن تـوبيخ والده وخيبة أمه الضعيفة ولوم إخوته الصغار. هـذا ما دار في ذهني وأنا أراقبه.

لمحني لملم أغراضه وفرَّ راكضاً ينادي من جديد علّه يحظى بزبون أخير قبل أن يُسدل الليل ستاره ويحين موعد لقاءه مع أفواه تنتظر طفلاً يحمل أكياس فاكهة وخبز وبسمة شكر وحمد.

أدركت في تلك اللحظة أنّ مَنْ نظن أنفسنا قد جرحناهم يكونون الأقدر على إيلامنا وجَرحِنا.

ابن عاق

هل هناك حظ سيئ وآخر جيد؟ ومن أين يبدأ..؟ من الطفولة..! من الشباب..! أم من قبل الولادة..؟

على من تقع المسؤولية؟ على الظروف؟ على طبيعة الظروف، على طبيعة الإنسان أم على التربية؟

هطلت عليّ هذه الأسئلة في طريقي إلى الجامعة، وبالمناسبة حظي ليس سيئاً بالجامعة. أما لماذا يشغلني الحظ، فذلك لأنني إنسان غير محظوظ مع الجنس الآخر (الجنس اللطيف).. وما السبب؟

صدّقوني مازلتُ أجهله. سبق وأعجبتُ بزميلة لي في الكلية، ترافقنا لعدة أيام، بعد فترة تغيّرتِ ولم أفهم السبب.

عندما سألتها أجابت باستعلاء:

- غريب أمرك، كأنك لا تنتبه لنفسك.

لحظتها تفقدتُ نفسي وما الخطأ الذي ارتكبته.

ضحكت قائلة:

- مشكلتك أنك لا تبدو قد دخلت الجامعة، ولا تعرف كيفية التعامل.. باختصار أنتَ كلاسيكي جداً.

أدارت ظهرها وانصرفت بعدما سبّبت لي جرحاً ولم تراع مشاعري أبداً.

يومها صرفتُ النظر عن كل شيء سوى الاهتمام بدراستي فإذ بي أقع مرة أخرى في مطبّ الخفقان العشقي وكان ذلك مع قريبة لي دخلت الجامعة بعدي فتوددت إليها، وبدأنا نخرج ونجلس ونتناقش فأوضّحُ لها بعض المحاضرات وأدعوها لتناول الشاي والقهوة..

كانت فتاة مرحة وعفوية، تعلّقت بها، ثم لم ألبث أن وجدتها مع شخص آخر، تضحك ويضحك.. يتهامسان ويشربان القهوة.

اقتربتُ منها معاتباً، مستنكراً سلوكها ناظراً إلى الطالب الآخر الذي اندهش لاقتحامي هذا.. فإذا بقريبتي تقف قائلة:

- مابك؟ اجلِسْ معنا.

لم أجلس بل سألتها:

- لماذا يجلس معك، ما يريد؟

أجابتني بحدّة:

- ما علاقتك أنت لتحاسبني؟ أنا حرة، أرافق من أحب ويجلس معي مَن أريد.

وعندما قلتُ لها:

- وأنا؟ ماذا عني؟ ألا أغنيك بشيء..؟

أجابت:

- غريب أمرك، كأنك لم تخرج من (الضيعة) ومازلت تتكلم بلهجة قروي جاهل. ألا ترى الناس والعلاقات، الطلاب وصداقاتهم، هل يعني إذا ذهبنا خرجنا في مشوار أو ساعدتني في أمر ما أنني مضطرة للالتزام معك؟ كنتُ أظنك أكثر مرونة.. على كل ها قد فهمت.

وجلست لتكمل حديثها مع طالب الجامعة..

هكذا، في كل مرّة أخرج غبياً ولا أحسن التصرّف.

ها أنا أقطع الحاجز.. كم مرة قطعت الحاجز! خمس سنوات وأنا أرتاد هذه الجامعة خرجت من البيت وأبي يقول لي:

- اللّه يرضى عليك يا أحمد، لا ترسب ولا سنة، اترك التسلية والحب، بدنا ترفع راسنا.. بدنا وبدنا.. وبدنا..

أمي كلما عدتُ إليها تحضنني كطفلٍ صغير وتدلّلني بأنواع الطعام والشراب، تحدّثني عما حصل أثناء غيابي وتهمس لي قائلة:

- يا بني لا تخلّي بنات الجامعة الملونات (حسب مصطلحها) ينسّوك أهلك ودروسك، ولا تخلي المدينة تنسّيك أصلك.

وتداعب بأصابعها الواهنة شَعري فأعدها ألاّ أخيب أملها بي..

وهكذا لم يتركوا لي فرصة الخروج من جلباب نصائحهم وتوجيهاتهم، ما عدتُ أعرف الحياة الاجتماعية. لم أستطع التكيّف مع الأجواء الجديدة، كنت أنفُرُ منها دون أن أجرّبها وأبتعد عن الطلاب والطالبات وأركّز على محاضراتي وملاحظات الأساتذة.

لم أجرّب الحب ولم أعرفه. لم أستمتع بحياة الطالب الجامعي، لا حفلات، لا مشاكسات.

إذاً، لن أمتلك ذاكرة لسنواتي الماضية. كل شيء كان منظماً وفق برنامج وخطّة. حسناً، سأتذكر نظرة إعجاب من دكتور أو مدرّس لملاحظة طرحتها ولفكرة ناقشتها، سأتذكر درجات الامتياز كل آخر سنة، ومعدّل الدرجات العالي، سأتذكر ضحكة من طالب أو طالبة لم تكن مفهومة بالنسبة لي. هل كنت شخصاً مضحكاً؟!!

أيمكن أن تحتفظ ذاكرتي بغير ذلك؟ وما العيب؟ ليس معيباً.. لكنه لا يدل على توازن طبيعي.

أمي تزغرد.. أبي يرقص بالعصا.. أهل الضيعة مجتمعون، يباركون نجاحي.. لقد جئتهم بالشهادة العليا، أخيراً تحقق أملهم بي، ومع ذلك لم أكن سعيداً، أشعر بنقص ما، بغصة ما، ها هي أمي وأبي يفترشان الأرض، تبدأ أمي قائلة:

- أبشر سنزوّجك..

نظرتُ إليها وقلت بهدوء:

- أنا لا أفكر بالزواج الآن يا أمي.

كدت أرفع صوتي صارخاً:

-٥٥-

"دعوني وشأني.. ماذا تريدون بعد؟"

لكني أحجمت حرصاً على مشاعرهم.

تابعت أمي متجاهلة مداخلتي:

- ابنة أختي نجلاء صبية جميلة وهـي تسأل عنـك دائمـاً، ما رأيك بزيارة لهم غداً؟

أبي لم يعجبه الحديث، استفزته أمي فقال محتدماً:

- وماذا عن ابنـة أخـي هـدى؟ أليـست مناسـبة أكثـر، وهـي متعلمة وطبيبة مشهورة، سوف تسعده، إنها تناسبه.

وما بين نجلاء وهدى علا الصراخ وتصاعد النقاش وكاد أبي أن يرمي الطلاق على أمي لولا أن تدخلت ظنـاً مـني أنـي سأحسم الموضوع فقلت:

- لا نجلاء ولا هدى.. هما علـى رأسـي مـن فـوق لكـني لـن أتزوج أياً منهما.

وإذا بالدهشة تعمّ الوجهين والغضب يبدو عليهما والـشرر يقدح من عيونهما، فقلت لهما:

- ولم أخـالـف أمركمـا يومـاً، كل تعليماتكمـا ونـصائحكما كانت ترنّ في ذاكرتي طوال سنين وسنين، ابتعدت عن كل مـا

يبدو في نظركما ممنوعاً أو محرماً أو غير مألوف مع تربيتي. أما آن الوقت لتتركوا لي مستقبلي وتعتقوني من وصاياكم، لم أعد صغيراً، لم أعد ذلك الولد الذي لم يقل لكما (لا) في يوم من الأيام. حان الوقت لأعيش التجربة، تجربة الحياة وتجربة الحرية الشخصية، ها أنا مؤهل لنيل الدكتوراه في الدولة التي أختارها نظراً لمعدل درجاتي الممتاز وسلوكي النظيف، وأنتما بعد كل هذا تحدثاني عن ابنة عمي وابنة خالتي وتقرران عني بعيداً عن مشاعري وقناعاتي، بعيداً عن احترام ثلاثين سنة قضيتها تحت جناحيكما دون أن أزعجكما يوماً أو أرفض شيئاً من توجيهاتكما. ألا يكفي كل ذلك لتقولا لي "عش حياتك"!

نهضا متأسفين لما سمعاه واتكا كل منهما على الآخر وهما يرددان بصوت واحد:

- يا خسارة لم نكن نعلم أنك ستكون ابناً عاقاً بعد كل هذا العمر والتفاني.. يا خسارة.

"ثمة نوعان من الشقاء

الأول ألا تحصل على ما تتمناه

والثاني أن يأتيك وقد تأخر الوقت

وتغيرت أنت وتغيرت الأمنيات"

أحلام مستغانمي

تكريم..

"اليوم سأكتب سبقاً صحفياً"

هـذا مـا قلتـه ـِيْ سـرّي وأنـا أدخـل صـالة المعـرض حيـث اللوحات لرسام له باع طويل ـِيْ الفن وهـذا المعـرض الأول لـه وسيتم تكريمه فيه.

تأملت اللوحات المذهلة بخطوطها المتماوجة، بتشكيلات ألوانها المتناغمة مع المعنـى والإضـاءة والأبعـاد.. تأملـت العبـث الواضـح ـِيْ بعـض اللوحـات.. الهـدوء هنـا والجنـون هنـاك.. شـيء مدهش أن تعيش متعة حالات تُشبهك وتقـرأك كمـرآة غايتها أن تقول لك:

- هذه هي الحقيقة.

بحثتُ عن فنّان هذا المعرض وتساءلتُ:

"ما حجمه؟ ما شكله؟ كيف يدخّن؟ كيف يفكّر؟"

الاهتمـام واضـح علـى الوجـوه والإعجـاب ـِيْ النظـرات الباحثة عن الجمال والشفافية واضح.

على كتفي آلة تسجيل وتصوير. وفي الحقيقة جذبتني الرسومات حتى كدتُ أنسى مهمتي الرسمية.. ماذا أسجّل، ومن أين أبدأ.. ومَن أسأل؟ فأنا لا أعرف شيئاً عن حياته.

وقفتُ أمام بعض الشبّان.. سمعت تحليلهم لبعض الخطوط والانفعالات حيث التراكيب المتداخلة والمتقاربة، الظل والضوء والبعد الفلسفي.. يتهامسون بشغفٍ عن هذه وتلك، مساحات متروكة لكل متذوق أن يستنتج على أي أرض غنية يقف وأمام أي ترف لوني يصمت ويحلم.

سررتُ جداً لما رصدته من أشياء تؤكد أن الفن مازال بخير ومازال يستقطب شريحة لابأس بها من المجتمع. وهذا الفنان صاحب مشروع لا يستهان به.. إنه مدرسة بحدّ ذاته.

أجريت بعض الحوارات القصيرة مع هذا وذاك.. انطباعاتهم.. ما لفت نظرهم.. حتى حان الوقت لأجد مَن أبحث عنه.

رأيت شابة جالسة وراء طاولة صغيرة عليها بعض البطاقات والصور.. تكتب شيئاً ما. سألتها:

- من فضلك، أين الفنان؟

نظرت إليّ باستغراب. "أيعقل أني لا أعرفه" ثم أشارت إلى مكانه.

وسط الجموع ووسط الأضواء كان هناك.. يجلس وحيداً، مع علبة تبغ متواضعة. يتأمل ما حوله وربما ما بداخله. اقتربتُ منه.. حيّيته، نهض لاستقبالي باحترام ودعاني للجلوس. لطافته أزالت أي قلق، فغالباً ما يصدمنا الفنانون بحاجز غرورهم وتعاليهم وهشاشة نفسيتهم.

ملابسه بسيطة جداً. أصابعه فضاء من القصص والأجنحة. أصابع طويلة وعريضة. على أطرافها بقع لونية متناثرة. نظرته ثاقبة، ووجهه.. يا لوجهه! يوحي بلوحة خجولة.

لم أكد أبداً حتى تدافع بعض الشبان والشابات لالتقاط الصور حيث ضجّت الصالة بوصول المكرِّمين.

وقفتُ قبالته وأنا أرصد تململ الفنان الذي لم يرق له ذاك المشهد. همس بأذني:

- انظر إليهم.. وجوههم باردة وحركاتهم تمثيلية.

قلت له:

- إنك تستحق بعد هذه التجربة الطويلة أن يحتفلوا بك وبأعمالك.

فأجاب:

- إنهم واجهة أيها الصحفي، أتظنّهم يدركون ما يفعلون!

ابتسمت وحاولت التقاط هذا التجمّع بصورة تتصدّر جريدة الغد.

تساءل البعض:

- ترى بم سيكرمونه؟ ما قيمة جائزته؟ كيف سيعبّر لهم عن فرحه أو حزنه!

قال آخر:

- بما أنه التكريم الأول له وربما الأخير فقد بلغ خريف العمر حتى فطنوا لتقصيرهم ومع ذلك، الفنان لا عمر له. فالتكريم على قدر التجربة.. هذا ما يجب أليس كذلك؟

لحظة صمت.

تقدم أحد المرافقين ناحية الفنان وهو بلباسه الرسمي الأسود اللامع.. حيّاه وقال له:

- تفضَّل إلى المنصّة.

نهض بتثاقل ولكن بثقة. استند إلى كتف شاب بقربه.. نظرات الحضور العذبة تقوّي همّته وتدفعه للأمام..

قالت لي امرأة عندما رأتني أكتب بعض الملاحظات:

- اكتب يا أستاذ أنه لا يملك مرسماً حتى الآن.. أنا جارته وصديقته، كل يوم يرسم في مكان.. أحياناً الطبيعة أو البحر.. حيث تقوده تحليقاته.. يدور ويدور منهمكاً صيفاً.. مرتجفاً شتاءً.. في الشتاء يا أستاذ تضيق الأمكنة ومع ذلك لا يُعدم الوسيلة.. حتى أدواته متواضعة.. طبعاً لا يدعك تشعر بذلك في لوحاته لأنه يملك ترفاً روحياً وإنسانياً وأصابعه من ذهب.

سألتها:

- ولماذا هو بعيد.. على مَنْ تلقين اللوم؟

أجابت:

- لم يحب الأضواء ويجد أن كل ذلك مجرّد استعراض. حاولنا استفزازه، يقول: "اللوحة هي ضوئي وأصابعي جائزتي".

قلت:

- كلام جميل وكبير.. ومن المفرح أن يقبل تكريمه اليوم.

أجابت بهمس:

- بيني وبينك.. إنه ضغط الحاجة.. نعم هذا هو السبب.

شكرتها على المعلومات القيّمة وجهّزتُ آلة التصوير لمزيد من الصور التذكارية.

ستة رجال متأنقين، لامعين يقفون إلى جانبيّ الفنان.. تعليمات هنا، وتوجيهات هناك، معجبون يتسابقون. إنه سبق على كافة الأصعدة.. كل ما حوله ينطق إلاّ هو مكتفٍ بما صنعت عوالمه الداخلية.

أحدهم قبّل الفنان وسلّمه شهادة تقدير كبيرة ونبّه أحد المصورين لالتقاط صورة. ثم قبّله الآخر وسلّمه درعاً باسم الجهة الراعية وشدّ على يديه مصافحاً ونفش صدره لصورة كبيرة مميزة. بعد ذلك تقدّم رجلان يحملان سلة ورد ضخمة.. قبّلاه وتشرّفا بصورة مماثلة.

كنتُ أراقب آخر مشهد مسرحي لهذا التكريم وقَفَزَت إلى رأسي جملة جارته وصديقته عندما قالت:

"إنه ضغط الحاجة".

صفّق الجميع في نهاية التكريم بعد كلمة التهنئة والمديح. ابتسم الفنان ساخراً من كل ما حدث وكان الخجل مازال مرتسماً على محيّاه والخيبة في نظراته، فقد غادروا الصالة دون أن يلقوا نظرة على لوحاته..!

"إن القوى الروحية المقهورة

إذا لامست الحقيقة تجلّت للعيان"

مهاتما غاندي

رحى الأيام

إنه اليوم الأول..

ارتدت حزنها وأخذت نفساً عميقاً يساعدها على استجماع أعصابها. نظرت في المرآة.. وجهها شاحب وعينيها في حداد مستمر.

ها هي في الشارع. النظرات تربكها.. منذ أشهر لم تخرج، كانت تحاول ترميم انكسارها شيئاً فشيئاً.. واليوم تضع نفسها وجهاً لوجه مع واقع بات يفرض عليها حياة جديدة.

هل ستتمكن من تحدي الظروف؟ وتحدي المجتمع الذي سيحاسبها على كل خطوة!

دخلت المؤسسة، الجميع بانتظارها.. عيون.. عيون.. وفضول يلاحقه فضول.

كاد يغمى عليها لولا أن سارعت إحدى الموظفات وأمسكتها برفق.

أحسّت أنّ الدنيا تدور فيها وأن خيالات تتراءى لها مكونةً غشاوةً وأصواتاً تجتاح مساحة عقلها، جلست بعدما تناولت كأساً من الماء أنعش قلبها قليلاً.. ثم دخلت إلى مكتب المدير وإذ به ينهض محيياً ومعزّياً قائلاً:

- أهلاً بكِ، نأمل أن نعوضك جزءاً بسيطاً من مصابكِ. إنه مصابنا جميعاً أرجو أن تتماسكي وترتاحي.. إنه اليوم الأول. حتماً سيكون صعباً عليكِ ولكن ستكونين امتداداً لمسيرة زوجكِ رحمه الله وأنت مؤمنة بحكمته

لم تستطع أن تنطق بكلمة.. اكتفت بأن هزت رأسها بالموافقة على كلامه. ثم نادى على شاب متوسط العمر أن يوصلها لاستلام عملها والتعرف على طبيعته.

صعدّت الدرج بتثاقل وقلبها يخفق وجلاً. تسأل نفسها:

"هل أنا قادرة على ذلك؟ هل سأصمد وأثبت لهم أني قوية وصاحبة إرادة؟ إنه شيء قاس جداً.. جداً.

اجتازت الطابق الأول ثم الثاني.. قال الشاب:

- ها قد وصلنا.. تفضلي هنا غرفتكِ ومكتبك منذ هذه اللحظة.

دخلت ورأت وجوهاً ستكون ملازمة لها.. وجوهاً غريبة تشاركها الغرفة وتقاسمها العمل..

"هل يعرفون زوجي؟ هل رأيتهم أثناء التعزية؟".

لا تذكر شيئاً. كأنها ترى كل ما حولها لأول مرة.

بكت وهي تقترب من مكتبها الذي كان لسنوات طويلة مكتب زوجها. كرسيه الذي استهلك عمره عليه.. الصور المرتبة تحت زجاج الطاولة. دفتره الصغير الذي كان يدوّن فيه بعض اليوميات. لطالما أحب كتابة المذكرات بأدق التفاصيل وأبسطها..

قلمه.. هذا قلمه الذي جفّ حبره.. كل شيء مازال كما هو.. إلا هو..

جلست وهي تبكي، لمساته هنا.. رنين ضحكته.. نشاطه والتزامه بواجبه المهني.. هنا رائحته.. آثار حركاته.. علبة سجائره.

اقترب منها رجل وامرأة وهما زملاء العمل وشركاء الغرفة. قال لها الرجل:

- كل شيء في البداية صعب يا سيدتي. نحن معك وسنساعدك على تجاوز هذه المحنة إن شاء الله.

ثـم مـدت لهـا الموظفـة منـديلاً لتمـسح دموعهـا وقالـت بأسى:

- رحمـه الله كـان رجـلاً مـستقيماً ومخلـصاً في علاقاتـه وعمله..

ثم عانقتها وبكتا معاً.

دخل أنـاس كثـر ليرحبـوا بهـا ويـشدوا علـى يديها.. شـيئاً فشيئاً اسـتعادت معنوياتهـا وثقتـها بنفـسها وهـي تـرى هـذه الحشود الطيبة والتي تدل على محبـة ووفـاء للرجل الـذي لم يترك إلا الأثر النبيل والسمعة النظيفة.

ها هـي بعد انتهاء الـدوام تجـد نفـسها في الـشارع وصـورة زوجهـا لا تفارقهـا.. سـتأتي كـل يـوم إلى مكتبـه.. سـتتعرض لأسـئلة كـثيرة.. ومـضايقات.. سـتجد الطيّـب والـسّيئ.. ستـسمع الكـثير عـن الأرامـل.. قـصص وإشـاعات.. أقاويـل وثرثرات.. سيقولون لها:

- كفى حزناً.. اخلعي هذا السواد.. الحيـاة تـستمر والـذي رحل.. رحل.. المهم انتبهي لنفسكِ.. مازلت شابة وجميلة.

وسيقولون في الطرف المقابل:

- لقد غيّرتِ الوظيفة حياتها، وها هي ترتدي ألواناً جديدة.. إنها تبدو أصغر سناً.. إنها وإنها..

نعم.. نعم.. لن ترحمها سنين الفاجعة التي ستقضيها وسط مجتمع يلاحقها ويرسم حولها هالة برّاقة تشير لأي تصرف أو سلوك ليكون في الصباح مادة دسمة للحديث والمبالغة في سرد سيناريو خبيث بطلته (الأرملة).

ها هي تائهة.. هل تتابع العمل أم تتركه؟ وهل تستسلم لعطاءات هذا العم وذاك الجد، وهدايا العمة ومساعدات الصديق.. و.. و...

لا.. لا يمكن أن تترك للآخرين فرصة التحكم بحياتها وحياة ولديها، لن تدع لهم فرصة استضعافها واستملاكها كقطعة أثاث أو شطرنج يحركونه على مزاجهم.. لتذهب شكوكهم شمالاً وجنوباً.. هي ستقف على قدميها.. ستعمل وتكافح وترعى ولديها رغم أنف الذين يراهنون على صبرها وثباتها.. ستكون المرأة التي تستمد من الضعف قوة ومن الموت الحياة.. الحياة التي يستحقها الأولاد..

الأولاد..

عندما فتحت باب منزلها تنفّست الصعداء.. لقد دخلت عالمها الذي تحب.. ستكون سيدته.. سيكون مملكتها.. ستدافع عنه وتحافظ عليه.. ستعمل وتنتج وتحقق ذاتها..

نظرت إلى صورة زوجها المعلّقة على جدار أحزانها بشريط أسود وإذ بالأولاد يركضون إلى حضنها ويسألون ببراءة عن يومها.. تتأمل الصورة.. تتأملهم.. تعانقهم.. تبتسم وسط دموعها:

- لا بأس يا ولديّ.. كان اليوم الأول صعباً.

"أقل عطف فاعل

أقوى من ألف معركة ومئة ألف فكرة"

بيير داكو

المفتاح..

هي.. لم تكن تعرف أنّ ثمة أشخاص موجودون فقط من أجل أن تلتقيهم يوماً ويشكلوا حديقة جميلة في صدرها المتعب انتظاراً.

لطالما تساءلت:

"ما شكل الحب؟ كيف نحسه؟ هل هو ما يحدث معي؟ ذلك الاضطراب اللذيذ، الرعشة العذبة، الحرارة التي تغوي الجسد بتدفق عاطفي يستحوذ على عالمها ويصبح هاجساً يومياً لا يفارقها؟ هل الحرارة التي تجتاحها دليل حب؟"

تهمس له في وداعة دفء:

- أطلق عصافير رأسي.. اتركها تنفلت من دهاليز اليتم.. وسّع لها الأماكن.. مدّ لها الشرفات والحدائق والأحلام.. حوّلها إلى غيم وعطر.. بدّد ظلمتها أيها الحب وليجنّ الرأس.. أنا امرأة المطر أنتظر الرعود والعواصف. دعها تتوغل في الأوردة.

هي.. تستحضر نبرة صوته.. رائحة جسده.. طلّته.. حديثه عن تجاربه.. عن نزواته.. تحب أخطاءه وهو يسردها باعتراف لطيف لا ندم فيه ولا لوم.. تعشق طريقته بتقطيع الفاكهة وتحويلها إلى مادة مثيرة للشهية.. تستعذب رشاقته.. خفّة روحه.. تتساءل:

"هل يعني كل ذلك أني أحبه؟"

هو.. لا يطرح الأسئلة.. لا يخاف من الزمن.. لا يبحث عن مبررات لوجود الآخر في كينونته.. يقول لها:

- كل شيء يستنفد تفكيرنا، قد يهلك ذاتنا، فلا تتعبي شفافيتك بتحديد شكل ولون وحجم ما يحدث معك. ليكن الحب.. ألم تقولي أنت امرأة المطر.. إذاً.. اخلعي خوفك وانثري حريتك على يديّ.. إن أصابعي أوتاراً لنغمك.

هي.. تشعر أنه جاء إليها في هذا الوقت ليؤكد ان اللّه أيضاً يساهم في تحقيق رغباتها، تشعر أنّ ما تحتاجه في الواقع يتجسّد لها من عالم الغيب.

يكفي أن تؤمن بحقها في الحب وتنسى الأشواك العالقة بأعماقها.

هي.. تدرك أنّ عقلها وجسدها ينجذبان لعقله وجسده.. تدرك أنّ انتظارها وحفاظها على نفسها وقمع شهواتها يجيز لها ممارسة الحب دون تسليط الرقيب وتوجيه الاتهام لتحليقها.

هي.. تقترب.. روحها منطلقة.. حواسها متحفّزة.. جسدها يتنفس الصعداء.. كل شيء ينطق.. المكان السّرية الحرية.. الخوف يتلاشى.. الجميع هناك ما عادوا بالنسبة لها قيداً.. هي عاشقة هذه اللحظة.. إنها لها.. لهما.. نداء يضجّ في مساماتها.. في خلاياها تتورد.. تألف.. تتأوّه.. تتصاعد الحرارة على شفتيها.. النبض في إيقاع ماجن.. اللعنة على الخوف..ممّ الخوف.. لِمَ الخوف؟

هو:

- لأول مرة تكونين أنثى حرة.. ألم تتعبي وأنتِ تتعاملين مع حياتك بالمسطرة.. وهل تظنين نفسك الآن متمرّدة؟ الحرية يا حبيبتي ليست تمرّداً. الحرية موقف.. التمرّد يقود إلى التوازن. وما فعلناه يقودنا إلى تحقيق الذات العاشقة.. الذات التي كادت تترمد في الدهاليز القصية للعفّة والتقاليد الوهمية.

هو.. لم يكن يعرف أن ثمة أشخاص موجودين فقط من أجل أن يلتقيهم يوماً ويشكلوا حديقة جميلة في صدره المتعب انتظاراً.

هي:

- أكنتَ مثلي!

هو:

- ذاك هو السر.. والمفتاح.

مهداة إلى د مجد عامر

صديقاً وقّع عليها بأفكاره

وجع..

هو التعب إلى حد الملل، هو ذلك الشعور المقيت الذي يحوّلك في لحظة معينة إلى كائن ضعيف.. هو العبور من وإلى ذاكرة أشخاص يقتربون منك لتشعل لهم قناديلك الواهنة ويبتعدون ليتركوا لك بعض رمادهم.. حيث يستفزك عالمهم إلى ما أنت عابر إليه.

في تلك اللحظات الكثيفة وفي لحظة بريئة مع الذات تدرك أن لا أحد هنا وهناك كفؤا لك.

كأسك على الطاولة ورأسك بين يديك والذاكرة شريط سينمائي يؤلف سيناريو شبه دراماتيكي.

وحدك ترفع الكأس.. وترشف مناجاتك.. كم أنت مشتاق لتعيش حياة هانئة.. عذبة مثل باقي الناس الذين ينعمون بالرفاهية..

سيارات.. أموال.. ثياب فاخرة من بلدان مختلفة ماركات غريبة مشتاق ليكون بجانبك من تحبهم، ويحبونك..

كأس أخرى.. كأسك..

تريد أهلاً وأخوات وإخوة.. عشرة.. عشرين.. عالم جميل..

تحتاج والدكَ.. تحتاج أن تنظر إلى بياض شعره.. هدوءه.. يدللك ويحبك.. يسرد لك تجربته في الحياة لتتعلم ولتعيش بعثرات أقل وقسوة أكثر رأفة.. ليته معك.. لكن المسافة بينكما بعيدة جداً..

رشفة أخرى..

لم ترَ والدك لم تسمع صوته لم تلمحه لكنك ترسمه وجهاً جميلاً حلواً.. عيونه.. أنفه.. فمه.. طاقيته العسكرية. كلما كبرتَ تقول:

"يكفي ذكريات ها قد كبرت وتعلّمت وتعذّبت وتزوّجت. ستصبح أباً عمّا قريب.. انتبه لحاضرك"

تشرب وتسكب.

ها هو أخوك قد أصبح أباً لقد كبرتم.. كبرت ومازلت تحتاج والدك أكثر.. والدتك أصبحت جدّة.. أحفاد والدك أصبحوا أكبر منك عندما تركك طفلاً.

طفلاً لم ينتظر أباه يوماً على الباب.. لم يُراقبه يوماً وهو نائم.. اشتقتَ إليه كثيراً لتجلس قربه وتناقشه بينما

تسكب له الشاي الدافئ.. تمنّيت أن يلاعبك.. تضحك ويضحك معك تسمع رنّة صوته..

هناك من قال لك أن نبرة صوته تشبه نبرة صوت عمك أبو حسام.

تتمنى لو أن والدك موجود وعمك أبو حسام وعمك أبو مروان وأبو عدنان وأبو محمد تسهر معهم وتستأنس بأحاديثهم وتغفو على نوادرهم.

كأس يليه كأس.. رعشة برد صغيرة تجتاحك وأنت هنا وحيداً إلا من ذاكرة مزدحمة بالحنين.

بعد أشهر سيأتي طفلك.. ستبقى إلى جانبه تخاف أن يعيش يتيماً.. تجلس منتظراً.. متحسراً.. متأملاً.. لن تجعله يعيش مثلك يحاكي صورة رسمتها براءتك وخيالاتك.

ستجعل طفلك يملّ منك.. ستلحقه.. قد يكرهك ولكنك ستقبّله وتحضنه.. سيعرف أنك أب محروم من أب.. ستداعب شعره وستبتاع له أغراض مذهلة وستفاجئه ببسكليت حيث كان حلمك ذات يوم..

أنت لم تتساءل يومها، لماذا لا تملك بسكليتاً كباقي رفاقك.. لماذا أنت تحلم وهؤلاء يحققون أحلامك..

أدركتَ بعد زمنٍ أن لديهم أب تفتقده في حياتك..

حتى الخوف كنت دائم الخوف.. لم تكن تعرف لماذا تخاف إلى أن وعيت إلى حقيقة أن البيت الذي ليس فيه رجل هو بيت مهدد بالخطر والخوف.

كنت تظن أنه مع الأيام سيخف خوفك وتتخلص منه.. للأسف بقيت خائفاً.. إلى الآن تخاف..

كأسك.. كأسك بلغ منتصف الأحلام..

تحلم وتحلم العمر يمضي والحلم لا يمضي بل يتكاثر..

ستكون أباً وهذا أمر تحتمل الفرح به.. لو كان والدك حياً كم سيكون سعيداً بأبوّتك.. كم تحتاجه لتصغي لما سيقوله لك عن المرأة والزواج والأولاد، ربما سيتركك تفهم الحياة مثلما تفهمها..

أنت إنسان متعب، لم ترتح في مدينتك ولا في مدينة حبيبتك.. قد تسافر إلى بلاد بعيدة ولا ترتاح، راحتك الوحيدة في الأحلام..

اشرب..

والدتك تحتاجها.. تحتاج حنانها وحمايتها.. ربما من الواجب عليك أن تمنحها بعد هذا العمر بعض الحنان والحماية، إلا أنك تلوذ إليها كطفل صغير يتلمس ما بقي فيها من عاطفة وأمان.

تشكر اللّه أن والدتك مازالت موجودة.. لن تحتاج لرسم صورتها وملامحها..

والدتك امرأة قوية، تذكر مقولتها الدائمة عندما كنت صغيراً:

"طالما اللّه موجود فلن يحدث لنا مكروه"

تصدّقها وتصبر معها..

تنتبه لنفسك.. ما الذي أيقظ كل هذه الذكريات لديك..

أهو الشراب؟ أم الفقد؟ أم الحنين لشجون تخفف من وطأة هذا الوجع..؟

ما الذي ينقصك؟ ما الذي يوافق طموحاتك؟ ما الذي يتوافق مع أفكارك..

ترفع رأسك.. تدمع عيناك.. تشعر أنك سمعتَ صرخة طفلك الذي لم يأتِ بعد.. تشعر أن ثمّة نداء يجلجل وحدتك..

تنهض وتمشي قليلاً..

تنظر إلى الشراب.. مازال في الكأس بقية.

"وردتان من النعاس ترتعشان فوقكِ يا وسادة،

وردتان ذابلتان رأسي وهذا المساء"

سنية صالح

امرأة عظيمة

وضعت المفتاح في قفل الباب وهي تدرك تماماً أنها تدخل بيتاً لم تعد تسكنه الحياة.. ولا الضوء يسكنه.. لقد مضى على هذا الوضع زمنٌ.

رمت حقيبتها على أقرب كرسي، نزعت حذاءها، فردت شعرها الطويل، مشت في الصالون حافية كأنها تخشى إيقاظ الموتى، تخلّصت من معطفها وألقته جانباً، توقفت عند الجدار الذي علّقت عليه الصور المكحّلة بشريط أسود لامع.. صور الأحبة.. صور الفجائع.

شعرت كأنها تراهم أول مرة.. الملامح.. العيون.. الشفاه.. شيء ما تغيّر.. ومن أين لهم أن يتغيّروا! أتكون هي؟..

وقفت عند صورة والديها.. لقد توفيا إثر حريق شبّ في حديقة المنزل.. والدتها احترقت وهي تحاول إطفاء النار التي تلتهم مزروعاتها وزهورها.. والدها لم يأبه لاندلاع النيران فابتلعته وهو يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وقفت طويلاً عند صورة زوجها الذي توفي في الغرب ونُقل جثمانه إلى أحضانها لتستقبله بكامل حدادها.

كان في السنة الأخيرة لنيل الدكتوراه وكانت في السنة الأخيرة لإغلاق ملف انتظاراتها ورسائلها اليومية إليه. كانت الرسائل بالنسبة له أوكسجيناً يقاوم من خلاله الغربة التي لم يحبها يوماً، لقد مات وحيداً إثر نوبة ربو حادة ولم ينقذه أوكسجين الرسائل.

لماذا تتذكر هذه الأحداث الأليمة.. اليوم تحديداً.. ألأنها؟!.. ها هي صورة صديقتها الأقرب إلى روحها والتي كان رحيلها مفاجئاً وصادماً.

لم تستطع الصدمات الكهربائية ولا الأدعية الإلهية أن تجنب قلبها الرقيق ذلك الصمت القاتل.. غادرتها هي أيضاً.. غادرها الجميع. أصبحت تخاف هذه المعايشة اليومية للذكريات.. تخاف الألوان القاتمة وتنفر من اللون الأسود الذي يرتديها كل يوم بشكل آلي وكأنه جزء من عاداتها.. من جسدها.. من مشاعرها.. حيث لا تكتمل صورتها إلا به. أصبحت تشعر أنها ميتة مثلهم.. كل شيء يتحرك حولها إلا هي..

حدادها بات حاجزاً بينها وبين الجميع.. لم تعد تتكلم إلا لماماً.. ابتسامتها لا تكاد تظهر حتى تغيب.. نصحها البعض بزيارة طبيب نفسي يرمم حياتها المعطوبة.. أدركت أن الصدأ بدأ يتسلل إلى داخلها وأن ما قاله لها أحد الأصدقاء من أيام سيتحقق:

"ستذبلين كما الوردة.. ستجف تربتك"

اليوم.. وبعد تلك السنين الواهنة تقف أمام المرآة وتسلّم نفسها (للكوافيرة).. حواجب.. أظافر.. ماكياج.. قص وسيشوار..

نظرت إلى الصور مرة أخرى وهي تناجيهم قائلة ومتسائلة:

- هل أخطأت؟.. هل تلومونني لأنني اشتقتُ للحياة؟.. اشتقتُ للألوان.. اشتقتُ للأحمر الناري الذي يحبّه زوجي.. للأبيض.. للأزرق البحري. صبغتُ شعري ليستعيد حيويته بعد تقشّف طويل وإهمال شديد. وضعتُ بعض الماكياج الخفيف.. الخفيف يا أمي.. ألم تقولي أن الماكياج الخفيف يُظهر جمال المرأة أما كثرته يشوهه؟ هل أخطأت.. خيّبتُ ثقتكم بوفائي؟ هل كنتم موافقين على انكفائي الذي

كـاد يمـتصّ شخـصيتي ويبعـد الجميـع عـني؟ أهـذا مـا تريدونه!! لم تكونوا يوماً من هواة الحـزن.. ماهـذا التقطيـب الذي اشتركتم فيه!

أحسّت بأنّ كل صورة إصبع اتهام واستنكار.

قامـت ودخلـت المطـبخ.. تناولـت زجاجـة الـبيرة المثلجـة، وضعتها على فمها لتفرغها في جوفها دفعة واحدة، ومازالت عطشى. تساءلت:

"إن كنت أحتاج لكل هذه المقدمات مع الصور الميتة.. ماذا سـأفعل مـع الـصور الحيـة؟ ربمـا مَـن كـان يـرفض حـدادي سيحتاج وقتـاً ليرحّـب بقـراري.. وأنـا.. إلى أي حـدّ مقتنعـة وقادرة على المواجهة!".

أيقظها مـن تهويماتها صـوت التلفـون.. أمـسكت الـسماعة ليأتيها صوت ابنها الوحيد.. قالت في سرها:

"يا إلهي.. نسيت ردّة فعله.. وزوجته!".

قالت بنبرة مرتجفة:

- ألو حبيبي.

جاء صوته من المدينة التي تم تعيينه فيها كمدير لإحدى الشركات:

- ماما.. اشتقتُ لكِ.. تأخرتِ عنّي.. قلقتُ.. هل بك شيء؟

ردّت بلهفة الأم المتألمة:

- لا شيء يا حبيبي.. اطمئنّ.. هل ثمّة إجازة؟

جاوبها:

- للأسف لا. لديّ مهمة خارج البلاد.. سأفاجئكِ بهدية تحبينها.. نسيت أن أسألك.. أمازلتِ ترتدين الأسود؟

بماذا تُجيبيه.. وماذا يُحب أن تجيبيه.. هل سيفرح إن قالت له: "بدأت اليوم حياة جديدة وتخبره عن لون شعرها وفستانها ولون بشرتها وأنها بدت أصغر عمراً وتشعر بحماس وشوق لكل شيء!"

قاطعها صوته:

- ما بك ماما.. لا أسمعك؟

أجابت بغصّة:

- مازلتُ أرتديه يا بني.

فإذ به يفاجئها:

- هذا ما توقّعته.. أنت امرأة عظيمة.. أنت رمز الوفاء.. مَن تستطيع أن تحترم ذكرى زوجها في هذه الأيام!

أرادت أن تغلق مباشرة.. ما عادت تحتمل مديحه الذي يدخل كالسّم في أذنها.. فقالت له مدّعية سبباً للختام:

- أحدٌ ما يرنّ جرس البيت.. سأكلمك لاحقاً. وأغلقت قبل أن تسمع كلمة أخيرة منه.

"أجمل حب..

هو الذي يأتيك أثناء بحثك عن شيء آخر"

أحلام مستغانمي

محار..

نظـر إلي كأنـه يعـرفني، اقـترب واسـتوقفني في منتـصف الطريـق بينمـا كنـتُ ذاهبـة إلى عملـي الـرتيـب.. حيـث الوجـوه التي مللتها والأحاديث التي أضجرت ذائقتي الاجتماعية..

قال لي بلطافة وثقة:

- إن لم أخطئ.. أنتِ السيدة محار!

أعجبني الاسم الذي نطق به كأنـه انتشلني مـن مستنقع، لكني لم أكن صاحبة الاسم. أجبته بحيادية:

- لقد أخطأت.. لستُ هـي.

ولا أعـرف لماذا لم أتابع السير.

أصرّ قائلاً بلباقة لم ينقصها التهذيب وعذوبة اللفظ:

- لا يمكن.. أيعقـل هـذا الـشبه.. عنـدما لمحتـك مـن بعيـد انتابني الشك للحظات، ولكن عندما اقتربـت وتنـشّقت رائحـة العطـر أحسـست بـأن سـؤالي كـان معـذوراً.. صـدّقيني، حتـى

العطـر الـذي لطالمـا كـان يـسبق حـضورها ويميّزهـا.. إنّـه عطرها.. رائحتها.

كانـت تبـدو عليـه علائم الخيبـة ويبـدو أنـه يفتقـدها منـذ وقت..

أجبته بهدوء:

- علـى كـلٍّ حـصل خـير.. فرصـة سـعيدة.. الآن اعـذرني لقد تـأخرت على دوامـي، وقد أتعـرّض لتـوبيخ لـست مهيـأة له.

ردّ بخجل شديد:

- أنا آسـف.. لم أقصد.

وأفسحَ لي بيده لأتابع طريقي..

راقبتـه وهـو يمـضي مطرقـاً متـشككاً.. تنهـدتُ وسـارعتُ الخطى والسؤال يدور في رأسي:

"هـل كان يفتح باباً للتعـارف؟ هـل كان ينتظرنـي ويعـرف طريقي؟ أم أنه شبّهني فعلاً للسيدة محار؟".

لفتَ رنين هذا اسم مسامعي وأحببته، إذ أنـي لم أسمـع بـه من قبل.

وها هي الأيام تمرّ وكلما وصلتُ منتصف هذا الطريق المؤدي إلى عملي الرتيب أتذكّر ذلك الوجه العذب والجسد الأهيف وذلك الذوق الرفيع في سؤاله واعتذاره.

كم تمنيت لو أني محار.. وكم كان راغباً في أن أكونها..

من يومها لم أعد أغير نوع العطر..

أحببتُ الطريق وتمنيت لو أصادفه مرة أخرى.

الشاهد

- ماتت..!

فوجئ الجميع بالخبر.

لم يفهم الأطباء ما جرى.. لم يعرفوا سبباً واضحاً للوفاة ولا تشخيصاً علمياً ينفي أو يؤكد أي احتمال أو تفسيراً للحالة.

لم يفهم أهلها شيئاً ولا الأقرباء ولا الجيران.

إنها في عمر الزهور.

لم تكن تعاني من مشكلة صحية، لم تبح يوماً لأحد بأن ثمّة ما يقلقها أو يزعجها، لم تشك أو تتذمر من موقف ما أو من أحد ما.

لم تذهب يوماً إلى عيادة، لم يطرأ عليها أي تغيير، لم تظهر عليها أي علائم.

احتار الجميع بموتها المفاجئ، أثارت استغراب كل من سمع.

شهقت شهقتها الأخيرة وماتت.

مازالت تحافظ على مبسمها وكأنها على موعد مع الأفق البعيد.

وحده.. يعرف أنها ماتت اختناقاً بقبلة!

حماية ودعاية

ضحكتُ فجأة وأنا أشاهد برنامجاً في التلفزيون مما أدّى إلى استغراب أختي التي تشاركني المتابعة ولم تجد ما يستدعي الضحك فنحن لا نتابع مسرحية كوميدية ولا موقفاً هزلياً ولا سيركاً. فسألتني بنبرة:

- ما بك كأنك سمعتِ نكتةً أو رأيت منظراً احتفالياً!

أخذتُ رشفةً من فنجان القهوة وقلتُ لها:

- انظري إلى الشريط أسفل الشاشة واقرئي بصوتٍ عالٍ بعد إذنك.

ففعلتْ.. قرأت:

"المفرقعات والألعاب النارية تسبب تشوهات في اليدين والوجه وتؤدي إلى فقء العيون، ننصح أطفالنا الأعزاء بالابتعاد عنها من أجل الحفاظ على صحتهم وسعادتهم".

لم تجد بعدما انتهت ما يدعو للضحك، بادرتني قائلة:

- هذا يبكي ولا يضحك على ما أعتقد.

ولمزيد من التوضيح ناولتها علبة التبغ وأشرت لها لنقرأ، فاستجابت وقرأتْ بصوتٍ عالٍ:

"التدخين يضر بصحتك ويسبب أمراض الرئة والسرطان، ننصحك بالامتناع عنه".

عندئذ وضعتْ يدها على جبينها كمن استدرك قلّة ملاحظته وشاركتني الضحك من جديد.

حكاية الحكايات

- سنبدأ الحكاية.

قالت الجدّة وهي تنظّف نظارتها..

تحلّق الأولاد حول المدفأة.. الجدّة تجمع خيوط البداية في ذهنها مستلذّة بإثارتهم، تحاول أن تصعّد عنصر التشويق في نفوسهم.

ها هو كل واحد منهم يضع في خياله موضوعاً ما لفكرة أو لحكاية.. ونادراً ما تتحقق نبوءتهم، لأن الجدة تفاجئهم بما لا يتوقعون.

ها هي تجلس هادئة، تراقبهم.

الأولاد مستفزون، وتتوالى أنفاسهم.. أصغرهم يلتمس دلالها، علّها تحضنه فيستمتع أكثر. قالت:

- فلنبدأ الحكاية.

وفجـأة.. انقطـع التيـار الكهربـائي.. عـمّ ظـلام دامـس، وأحاطهم الخـوف.. اتجهت أنظـارهم إلى ضـوء شـعّ وانطفـأ خلـف النافـذة، سُـمع دويّ في الخـارج، طـائرات.. دبابـات أصـوات وصـراخ.. ركـض عـشوائي.. طلقـات ناريـة في كـل مكان.. انفجارات.. صـوت الإنـذار يعلـو.. الأولاد مذعورون، يلوذون إلى جانب جدّتهم.. يلتمسون الحماية..

الجدّة تتمتم بدعوات ما.. ترفع يديها إلى السماء، تذرف الدموع وتضمّ الصغار ثم تكابر قائلة:

- لا تقلقوا يا صغاري.. سنبدأ الحكاية.

تناثر الزجاج، اخترق الرصاص الجدار، اخترق انتظارهم ونعاسهم.. أحلامهم.. تكوّمو فوق بعضهم، تكوّم الأثاث على الأثـاث.. وفجـأة، خـيّم صـمت كئيـب، تجمّـدت الأحـداق والأنفـاس.. ومـن تحـت الأنقـاض قالـت الجـدة، وحـشرجة الموت في نبراتها:

- غداً يا أولاد.. سنبدأ الحكاية.

وغابت أنفاسها، وأنفاس أحفادها الطاهرة تحت الركام.

وفي اليوم التالي كانت قصّتهم على كل لسان.

ظنون

ذهب إليها حاملاً بشارة الحمل..

بكت وأغمي عليها..

ظنّ من شدّة الفرح..

وعندما أجهضته بعد أيام.. فرحت وغنّت..

ظنّ أنها جنّت..

لم يظنّ أبداً.. أنها ترفض طفلاً منه!

قصّة بغصّة

آلاف الليرات أنفقتها على تجميل وجهها وجسدها..

استعانت بالمجلات والكتب والخبراء..

استمعت إلى الجاهل والمشعوذ والعارف..

جرّبت الغالي والرخيص..

استدانت من القريب والبعيد..

باعت أملاكها..

سافرت إلى دول متقدمة في الطب الشعبي والحديث..

غيّرت مرايا البيت..

لم تستطع أن تصل إلى نتيجة تقول لها:

"أنتِ جميلة!".

بلاغ كاذب

فتّشوا غرفتها.. كتبها ودفاترها..

فتّشوا في رائحة ملابسها وخزانتها..

فتّشوا فراشها ووسادتها..

فتّشوا على ماكياجها وعطورها..

فتّشوا في عقارب الساعة وفي أرقام الهاتف..

لم يجدوا أحداً..

هي.. ضحكت لأنه كان موجوداً في هواء الغرفة..

هم.. ضحكوا لأنّ البلاغ كاذب!

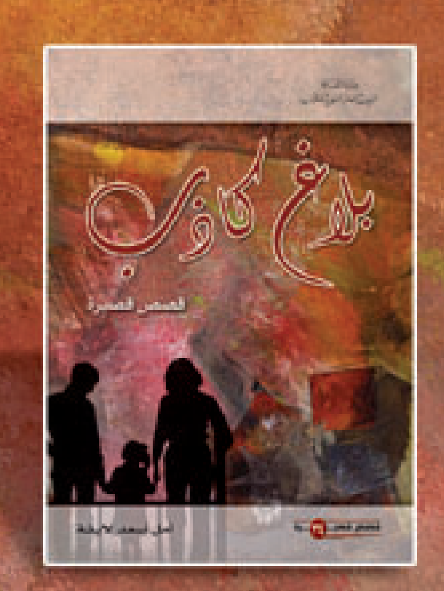
صدر للمؤلفة

- خيوط الفجر	شعر	١٩٩٧م
- ملاك العودة	شعر	٢٠٠٢م
- حاسة الحب	شعر	٢٠٠٦م
- مسافات الحلم	قصص	٢٠٠٧م
- وثمة ما ينتظرك	شعر	٢٠٠٩م

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة







www.syrbook. gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٧٠ ل.س أو ما يعادلها